موت جثة

يقال إن مدير عام شركتنا، قبل أن يموت منذ سنتين، كان شخصية غامضة لا تحظى بالشهرة نفسها التي لها اليوم؛ لكن إنجازاته بعد ذلك، منذ أن بدأ حياته الجديدة كجثة محنطة، جعلته واحداً من أهم مدراء شركات الفحم في البلاد، بل وفي الإقليم كله. وعلى الرغم من أن نشاطاته الاجتماعية خارج العمل أصبحت نادرة، إلا أن شعبيته كانت تزداد يوماً بعد يوم، فقد نذر الفائض من حياته للعمل، وكرَّس كل جهوده في سبيل ابتكار أساليب جديدة وعصرية في إنتاج وتصدير الفحم الوطني.

* * *

كانت الجثة في معظم الأيام تبدو رطبة وحارة، كما لو أنها خرجت للتو من حمام تركي... يأتي بها سائقه العجوز كل صباح إلى مقر الشركة، قبل أن يحملها اثنان من الموظفين، تم التعاقد معهما خصيصاً لهذا الغرض، ويضعانها برفق فوق كرسي مكتبه الفاخر، ليبدأ برنامج عمله اليومي المنتظم بكل حيوية ونشاط...

يكون عادة في استقبال جثة المدير العام سكرتيرة مكتبه، الحسناء، التي تم التعاقد معها بعد صفقة رابحة مع متحف المومياء الوطني، إلى جانب مستشار الشركة، الأستاذ عبد الهادي، الذي كان يتأكد، في البدء، من درجة حرارة المكيف، قبل أن يضع بعض الملفات أمام المدير، آمراً الجميع بالانصراف. يحدث هذا كل صباح بعد أن يكون العم قاسم قد وضع على مكتب المدير العام أصيص زهور يانعة، وكوب النسكافيه بنكهته الذهبية بدون كافيين، وبرائحتها الزكية التي يعبق بها المكتب طوال اليوم، بل وجميع مكاتب الشركة، بعد أن صدر التعميم الإداري الأخير بجعلها المشروب الرسمي والوحيد في الشركة.

* * *

كانت الجثة ضخمة؛ لكنها متناسقة، بوجه سمين مترهل الوجنتين، تراقب زوارها وموظفيها، بمهابة صامتة، من خلال نظارتها السوداء ماركة "كاريرا"، التي أهداها لها أحد أصدقائها من السفراء الأجانب. لم تكن تصدر عنها أية رائحة كريهة، بل إن الذين يحظون بفرصة الاقتراب منها يؤكدون أنهم عادة ما يشتمون روائح عطورٍ غالية الثمن. تلبسُ بدلات رسمية بماركات عالمية، يتناسق لونها مع لوني ربطة العنق والحذاء اللامع غالي الثمن ولون القميص ذي الأكمام الطويلة بأزرارها الذهبية. حتى هاتفها الذكي، الذي لا تستعمله كثيراً، كان يُغلف كل صباح بلون مناسب للبدلة. باختصار، كانت الجثة نموذجاً للأناقة الباذخة، تكاد من فرط أناقتها أن تضاهي تماثيل فاترينات معارض الملابس الراقية. أما

شعرها الكثيف، الذي غزته بعض مساحات متفرقة من الشعر الأبيض، فكان مناسباً للعمر الذي مات به صاحبها: شاباً في السادسة والستين.

* * *

عندما ينتهي المدير العام من عمله اليومي، في تمام الثانية عشرة والربع، يأتي الموظفان ليحملانه إلى السيارة. وما إن تستقر الجثة على الكرسي الخلفي حتى يقوم السائق العجوز بربط حزام الأمان عليها وإغلاق الباب بإحكام، قبل أن ينطلق بالسيارة عائداً بها إلى المنزل.

* * *

تعد شركتنا واحدة من أكبر الشركات الرائدة في الوطن. وعلى الرغم من أن بلادنا لم تكن في الماضي تعتمد على الفحم كمصدر للإنتاج؛ إلا أنها في السنوات القليلة الماضية أصبحت واحدة من أهم دول الإقليم في صناعته وتصديره، جاعلة من الفحم أحد أهم مواردها المالية، وعنصراً مهماً في اقتصادها الوطني.

كم أشعر بالافتخار وأنا أشاهد منتجات شركتنا الوطنية وهي تتصدر لوحة الإعلانات الضخمة في ميدان التحرير والشوارع التجارية الكبرى! أو عندما تظهر على صفحات الصحف والمجلات، خاصة في تلك الإعلانات الملونة التي تظهر على ورق مصقول وفاخر، ويظهر فيها المدير العام، وقد عكست نظارته السوداء الباذخة صورة "الجائزة الدولية

لتصدير الفحم" التي حصل عليها مؤخراً! أما عندما تظهر إعلانات شركتنا على شاشة القناة الوطنية الأولى، أو شاشات القنوات الفضائية الصديقة، فلكم أن تتخيلوا مقدار سعادتي واعتزازي...! يلتصق وجهي بشاشة التلفزيون، ولا أستطيع أن أمسك نفسي عن ذرف الدموع، كالعادة، خاصة عندما أسمع نشيد شركتنا الرسمي في نهاية الإعلان بموسيقاه السيمفونية الرائعة، وصوت كورال الشباب الشجي يصدح: "أمة رائدة، تحت راية فحمنا الوطني".

* * *

يقال إن أحد أهم أسباب نجاح مديرنا العام هو مهارته الكبيرة في توزيع أعمال الشركة على المتخصصين، واختياره كوادر ذات كفاءة عالية كمستشارين له، وإعطائهم صلاحيات تنفيذية كبيرة. كان على رأسهم الأستاذ عبد الهادي، الذي استطاع بخبرته الطويلة رسم سياسات الشركة بنجاح. يقال أيضاً إن الأستاذ عبد الهادي هو مهندس وسائل التواصل الحديثة بين المدير العام وبقية الموظفين في الشركة. في البدء كان الأمر صعباً، فقد كانت تنقصنا المهارات اللازمة لفهم الأوامر التي تصدرها جثة المدير العام، أو التواصل الشفهي معها؛ لكننا، بعد عدد من الدورات التدريبية الخاصة برفع القدرات الذهنية، التي أقامها الأستاذ عبد الهادي بنفسه، أصبحنا نعرف تماماً كيفية التواصل الإداري الحديث مع المدير العام. التواصل هذا يحدث طبعاً بمساعدة الأستاذ عبد الهادي، الذي يقوم مثلاً برفع يد المدير العام اليمنى والتلويح بها مرة واحدة لكي نفهم اعتراضه، أو مرتين لنفهم موافقته، أو

وضع يده اليسرى على صدره لنفهم انتهاء الاجتماع... وهكذا. نعم، أصبح الأمر سهلاً إلى الحد الذي أصبحنا نحن، مع مرور الوقت، نستخدم هذه اللغة الإدارية الحديثة في ما بيننا بطلاقة.

* * *

في الاجتماع الشهري لمدراء الإدارات، أحرص على أن يكون مظهري أنيقاً، لهذا أقوم باستعارة بدلة أخي الزرقاء، وأتوجه باكراً كعادتي إلى العمل لأكون في مكتبي قبل وصول الأستاذ أمين، مدير إدارتنا، حفظه الله، الذي يدهشني عادة بأناقته، خاصة في هذا اليوم، الذي يتوسط فيه المدير العام الطاولة البيضاوية الكبيرة، وبين أصبعين في كفه الأيسر يمكث بوقار سيجار كوبي فاخر. بجانبه تماماً على اليمين يجلس الأستاذ عبد الهادي، بينما يتوزع المدراء، ببدلاتهم الأنيقة، على جانبي الطاولة. يستمع المدير العام باهتمام لجدول أعمال الاجتماع، الذي يقرؤه مقرر الاجتماعات. وبإشارات مختلفة من يده اليمنى، التي يرفعها برفق الأستاذ عبد الهادي حسب الموضوع المطروح، يصدر توجيهاته بسرعة فائقة، ويدونها الجميع بلا استثناء قبل أن ينفض الاجتماع بإشارة نهائية من يده اليسرى.

* * *

لم يكن عبد الرزاق شخصية متذمرة على الإطلاق! حتى لو أراد أن يتذمر فلن يستطيع؛ وهكذا عاش حياته سعيداً، دون أن يألو جهداً ليعرف سبباً لهذه السعادة. منذ أن توظف أول مرة في الشركة، حارساً مدنياً، قبل عشر سنوات، إلى أن ترقى وأصبح رئيساً لقسم

الترتيب والأرشفة الداخلية، الشهر الماضي، لم يتذمر مرة واحدة، أو يقدم شكوى من أي نوع. خلال سنوات عمله، كان يشعر بالرضا التام وهو يقوم بما يوكل إليه من قبل رؤسائه المباشرين، بل إنه لم يستطع في يوم من الأيام أن يفهم لماذا يتذمر بعض الموظفين والمدراء في الشركة، أو يرفعون الشكاوى من حين إلى آخر!! بالتأكيد لم يشاركهم أيًا من اجتماعاتهم أو اعتصاماتهم الاحتجاجية، التي كان يصفها مديره المباشر، الأستاذ أمين، بالخيانة غير المبررة. كان هذا في الماضي، أما الآن فالحمد لله، لم يعد هناك أي اجتماعات أو اعتصامات من أي نوع، فقد استطاع المدير العام، خلال العامين الماضيين، بحنكته ودهائه، ومساعدة المخلصين من مدراء الإدارات وموظفي الشؤون المالية، تنقية الشركة من كثيرٍ من عناصر الفوضى والتذمر؛ تلك العناصر التي، كما وصفها المدير العام في أحد الاجتماعات العامة، لا عمل لها سوى الانتقاد ومحاولة عرقلة سير الإنتاج المتصاعد للشركة.

* * *

لبستُ بدلة أخي الزرقاء، وتأنقت بربطة عنق مناسبة، ووصلت إلى الشركة مبكراً، فاليوم كان موعد الاجتماع الشهري. عندما دخلت باب الشركة الرئيسي لاحظت صمتاً مريباً يلف المكان! لم أجد أياً من حراس الشركة المدنيين في مكانه!... انتابني قلق مبهم... صعدت إلى الدور الأول متوجساً بعد أن لاحظت أن موكيت السلم كان مبتلاً بشكل ملفت للنظر... كانت المكاتب والممرات خالية تماماً، وكانت أرضيتها مبتلة أيضاً... "غريب...!"، حدثت نفسي ونظرت إلى ساعتي الرقمية لأتأكد من الوقت. لم أكن مبكراً أكثر من اللازم! أصخت السمع... كان بالإمكان سماع صوت بكاء في الأعلى. صعدت السلم إلى الدور الثاني، حيث مكتب المدير العام، فهالني ما رأيت! وجدت الحراس المدنيين وعدداً من

الموظفين بينهم مدراء الشؤون المالية يقفون بحزن واضح خارج مكتب المدير العام. كان هناك أيضاً العم قاسم، بيده كوب القهوة الذهبية بدون كافيين الخاصة بالمدير العام، والأستاذ أمين، مديري المباشر حفظه الله، والموظفان اللذان يقومان بحمل جثة المدير العام كل صباح... كانوا جميعاً هناك، مطأطئي الرؤوس، يجهشون بالبكاء، دموعهم تسيل بغزارة مكونة شلالات صغيرة أغرقت موكيت أرضية الشركة. عند باب مكتب المدير العام كان الأستاذ عبد الهادي واقفاً بشموخ، يمسح بمنديله الأنيق نظارته الطبية، محاولاً إخفاء دموعه التي سالت بغزارة على وجنتيه وبللت ثيابه تماماً... من داخل المكتب كان بالإمكان سماع بكاء السكرتيرة الحسناء بوضوح من بين بكاء الموظفات الأخريات اللواتي اجتمعن حولها في حلقة صاخبة من العويل. ماذا حدث يا ترى؟! سألت نفسي بتوجس؛ لكن لم تمر سوى ثوانٍ قليلة حتى استطاع عقلي الصغير أن يدرك فاجعة ما حصل! لقد مات المدير العام مرة أخرى، بعد سنتين فقط من موته الأول! هل يمكن أن يحدث هذا حقاً؟! المعروف أن خبراء تحنيط مدراء العموم أكدوا أن جثة مديرنا العام كانت صالحة للحياة والعمل لمدة سبع سنوات على الأقل... كيف ماتت الجثة بهذه السرعة؟! يا لهول الفاجعة! كيف سنعيش بعده؟! وماذا سيكون مصير الشركة، ومصيرنا؟!

وبينما كنت مأخوذاً بهذه الأسئلة لاحظت أن الجميع كانوا يرتدون ملابس سوداء. حينها تأكدتُ من صحة هواجسي وشكوكي، ونظرت بفزع إلى ملابسي الزاهية الألوان، فشعرت بالإحراج الشديد، ثم ما لبثتُ أن أحسستُ بغصة في حلقي، وبدأت معدتي تضطرب كما

لو أنها ابتلعت حجراً ثقيلاً... شعرتُ بصعوبة في التنفس، ورويداً رويداً انقطعتْ أنفاسي تماماً... كنتُ أموتُ دون شك... فنبضات قلبي توقفت، والضوء بدأ يتلاشى من حولي، وعقلي بدأت تغزوه ظلمةٌ باردة... تشنجتْ أعصابي... حاولت الصراخ دون جدوى... وما هي إلا لحظات حتى فقدت وعيي تماماً قبل أن أستيقظ من النوم مرعوباً... كنتُ ألهث في فراشي المبتل بالدموع وبالعرق، وكان حلقي جافاً، وشفتاي ترتعشان... ركضتُ إلى الحمام وغسلتُ وجهي مراراً بماء الحنفية البارد... نظرتُ في المرآة... كان وجهي شاحباً، وعيناي مرهقتين من ذرف دموعٍ غزيرة... بعد لحظات صمتٍ عميق استطعت أن أهدئ من روعي، وعاد تنفسي إلى انتظامه... لقد كان كابوساً... بل الكابوس نفسه لليوم الثالث على التوالي! جمعتُ شتات نفسي المضطربة، وشربتُ من ماء الحنفية البارد، وتنفستُ الصعداء... "لا بد أن أذهب إلى طبيب نفساني...!"، حدثت نفسي، وغسلتُ وجهي مرة أخرى قبل أن أعود إلى سريري منهكاً، تجول في ذهني أفكارٌ سوداء استطعت بجهد من طردها، وانتعشت آمالي من جديد، فما تزال جثة مديرنا العام على قيد الحياة، وغداً سيكون يوم عمل جديد في الشركة، لنواصل مشوار نجاح وتطوير شركة فحمنا الوطني الغالية... نعم كل شيء على ما يرام... حدثت نفسي قبل أن يغالبني النعاس وأغرق في النوم مرة أخرى.

شيفلد، بريطانيا – صيف 2013